العمـــــارة الإســـــلامية في العـــــهد العثمـــــاني

العمـــــارة العثمـــــانية - OTTOMAN ARCHITECTURE

(نهاية القرن 13 م – 1918 م)

انبثقت الدولة العثمانية عن إمارة صغيرة غربي الأناضول، حيث كانت تجاور إمارات سلجوقية أخرى. شجع ضعف السلاجقة والبيزنطيين في القرن الثالث عشر الميلادي الأتراك العثمانيين على التوسع على حساب هاتين الدولتين. فاحتلوا عام 1299 م مدينة بورصة واتخذها أورخان بن عثمان عاصمة للدولة الجديدة. استمر توسع الدولة حيث احتلوا جزءا من أوروبا حوالي عام 1361 م. وتمكن السلطان محمد الفاتح عام 857 هـ/ 1453 م من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، التي أصبحت تحمل اسم استنبول وتحولت إلى عاصمة للعثمانيين منذ ذلك الحين.

بعد أن سيطر العثمانيون على كامل الأناضول التفتوا إلى البلاد العربية وقضوا على دولة المماليك في بلاد الشام ومصر والحجاز. كان ذلك في عهد السلطان سليم الأول عام 922 هـ/1517 م وتمت السيطرة أيضا على العراق وعلى شمال إفريقية عدا المغرب.

واستمر التوسع في أوروبا حيث أصبح قسم كبير منها عثمانيا (بلغاريا، والمجر، ويوغوسلافيا، واليونان وجزء من بولونيا وروسيا) وانتشر الإسلام في بعض مقاطعاتها. أصبحت الدولة العثمانية إمبراطورية واسعة، ولم تبدأ رقعتها بالتراجع إلا بعد فشلها عام 1683 م في احتلال فيينا عاصمة دولة النمسا والمجر في ذلك الحين. ولكن نهاية الدولة العثمانية لم تكن إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى عام 1918 م وتحولت إلى الجمهورية التركية التي تقتصر على الأناضول وجزء صغير من أوروبا.

ورثت الدولة العثمانية، بضمها البلاد العربية، التراث الروحي والثقافي لهذه البلاد وانتقل مركز الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى استنبول التي أصبحت مركز الثقل في العالم الإسلامي. شهد العهد العثماني حركة بناء نشطة على مدى ستة قرون. توزعت الأبنية بين استنبول والمدن التركية وعواصم الولايات، وهي تشمل مختلف أنواع الأبنية من جوامع ومدارس ومجمعات (ما يعرف بالكلية) وأسواق وخانات وترب وسبلان وحمامات وقصور ومنازل. تأثرت العمارة العثمانية بالتراث المعماري للسلاجقة في الأناضول وبالبيئة المحلية وتقاليد البناء الموروثة عن البيزنطيين والأرمن وكذلك عن الأقاليم الإسلامية التي سيطر عليها العثمانيون.

1. بدايات عمـــارة العــهد العثمــاني في تـركيا

تأثرت العمارة العثمانية بالعمارة السلجوقية، التي تميزت في الأناضول بأبنية مغلقة تغطيها القباب والقبوات المختلفة وهذا ما نراه مثلا في مساجد القرن الخامس عشر الميلادي.

1.1. يشيل جامع (الجامع الأخضر) في بورصة Yeçil Cami (Mosque) in Bursa

شيد الجامع الأخضر من قبل السلطان شلبي محمد بن بيازيد بين عامي 1412-1419 م في مدينة بورصة.

حرم الجامع ذو شكل مميز فهو يتكون من فراغ مركزي مربع تعلوه قبة تنفتح عليه الأواوين من ثلاثة جوانب مع إيوان صغير مرتبط بالمدخل (تصميم متصالب)، كل منها مسقوف بقبة مما يجعل الفراغ يأخذ شكل حرف T اللاتيني المقلوب. وفي الأركان فراغات مسقوفة بالقباب والقبوات المتصالبة.

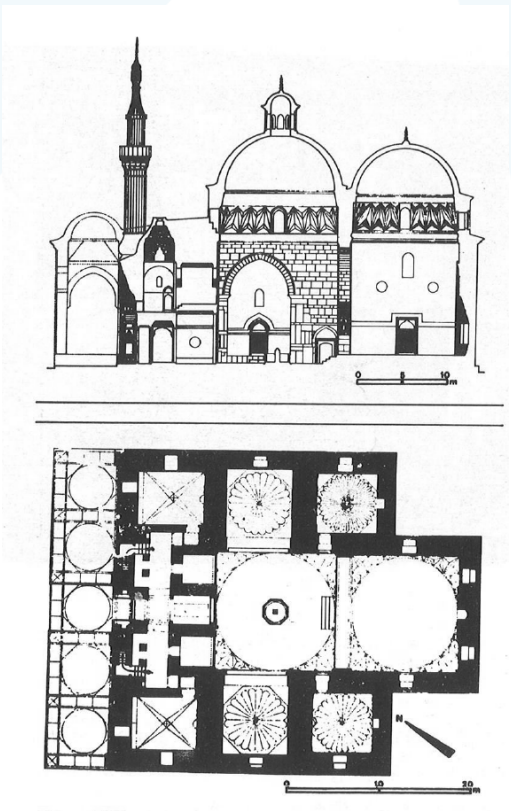

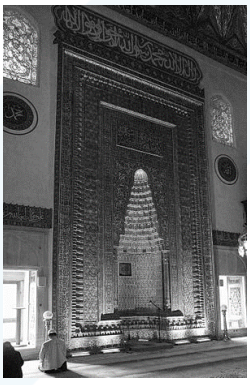

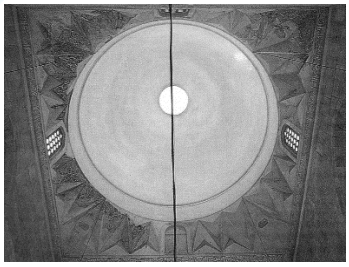

يشيل جامع في بورصة: مقطع طولي - مسقط - صورة جوية - قبة الفناء المركزي - المحراب المغطى بالقاشاني

القباب نصف كروية ويتم الانتقال من المسقط المربع إلى القبة بواسطة بمجموعة من الأشكال الموشورية، التي تملأ الأركان وتحيط بالجدران وتعتبر وساطة انتقال من نوع خاص تميزت بها أبنية بورصة وأديرنة، إضافة إلى المقرنصات في بعض القباب. كان يتقدم واجهة الجامع الخارجية رواق تعلوه خمس قباب، وهو أمر سينتشر في معظم الجوامع العثمانية، ولكن لا وجود لصحن هنا.

2.1. جـامع أوج شيريفلي في أديرنة Uç Šerefli Cami (Mosque) in Edirne

يعتبر جامع أوج شيريفلي في أديرنة من الجوامع الشهيرة التي تتمتع بأهمية خاصة في تاريخ العمارة العثمانية، وذلك لأن فكرة القبة المركزية أخذت تتبلور في هذا المبنى. اسم الجامع مرتبط بإحدى مآذنه الأربع التي تتميز بشرفاتها الثلاث. شيد الجامع في عهد السلطان مراد الثاني بين عامي 841-851هـ / 1437-1447 م.

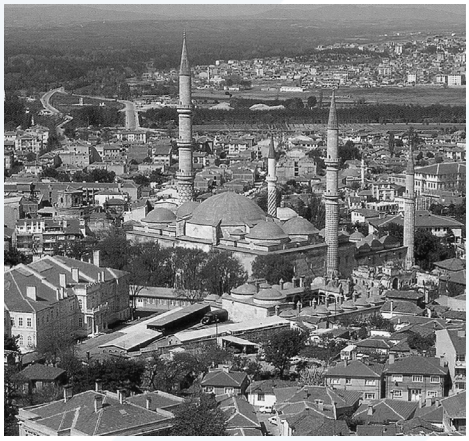

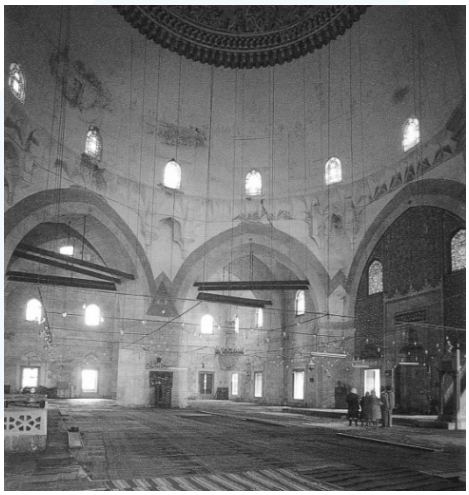

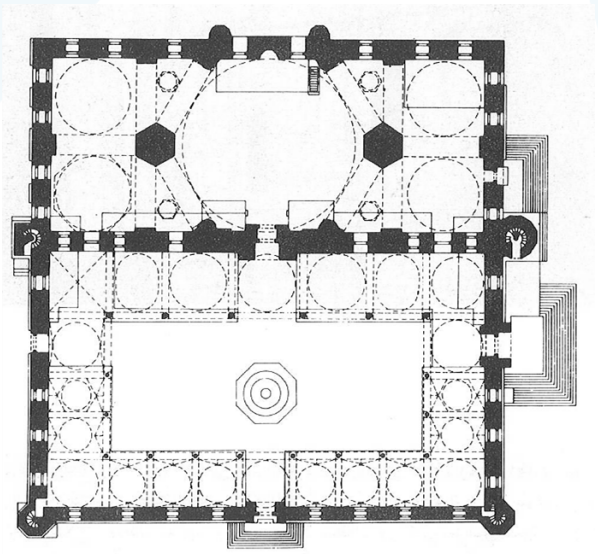

جامع أوج شيريفلي في أديرنة:

المسقط - صورة جوية - القبة المركزية

https://manara.edu.sy/

حرم الجامع مستطيل الشكل يمتد بمحاذاة جدار القبلة، الجزء المركزي منه مسقوف بقبة كبيرة محمولة على ستة أقواس تعتمد على دعامتين مستقلتين ذات شكل مسدس إضافة إلى دعائم جدارية. يقع في الجانبين جناحان مستقلان، كل منهما مغطى بقبتين صغيرتين محززتين.

يتقدم الحرم صحن محاط من جهاته الأربع بأروقة تغطي كل مجاز فيها قبة، جميعها مغطاة من الخارج بصفائح من الرصاص. ويعتبر هذا الصحن أول عودة للمسقط التقليدي في هذه الفترة. للجامع أربع مآذن تتوزع على الزوايا الأربع المحيطة بالصحن والرواق. المآذن أسطوانية الشكل، تتميز برشاقتها البالغة وشرفاتها المتعددة المحمولة على صفوف من المقرنصات. نهاية المئذنة على شكل مخروط مغطى أيضا بصفائح من بالرصاص.

2. عمـــارة العـــهد العثمـــاني في استنبـــول

إثر فتح القسطنطينية عام 1453 م حول العثمانيون كنيسة آيا صوفيا، التي تعود إلى عهد الإمبراطور البيزنطي جوستينيان عام 532 م إلى جامع. يتميز هذا المبنى الضخم بكونه مسقوف بقبة مركزية ضخمة وعلى طرفيها جناحان مسقوفان بنصفي قبة أقل ارتفاعا.

وقد أثر هذا المبنى بشكل واضح على عمارة المساجد العثمانية ولا سيما عنصر القبة وأنصاف القباب. ويعد من هذه المساجد في استنبول جامع الفاتح وجامع بيازيد.

ولكن كانت هناك نقلة نوعية ومرحلة جديدة في بناء المساجد عندما تولى المعمار سنان تشييد أبنية الدولة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي. توفي سنان في عام 996 هـ/1588 م وعاصر أربعة سلاطين هم: سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث. تنسب إليه الوثائق 53 بناء في أنحاء الإمبراطورية العثمانية وكان يعمل معه مهندسون تابعوا العمل بعد موته.

1.2.جـامع شـاه زاده في استنبـول Shehzade Mosque in Istanbul

شاه زاده تعني ابن الشيخ، وهو الأمير محمد بن السلطان سليمان القانوني، الذي توفي شابا، فأمر والده بتشييد مجمع أو كلية يطلق عليها اسم الأمير وتضم جامعا مع تربة إضافة إلى مدرسة وخان ودار للشفاء. وكلف المعمار سنان بالعمل، فكان المسجد أول روائع سنان في العاصمة وتم بناؤه بين عامي 1543-1548 م.

تصميم **حرم الجامع أو قاعة الصلاة** يقوم على أساس قبة مركزية وأربعة أنصاف قباب محمولة على أربعة أقواس وأربع دعائم ضخمة. ونلاحظ وجود حنايا ركنية على شكل أنصاف قباب صغيرة تكمل تغطية الفراغ المستطيل. ويحتل الأركان مجازات صغيرة تغطيها قباب.

القباب العثمانية كروية الشكل، تقل قليلا عن نصف الكرة وتكسى من الخارج بصفائح الرصاص. للقبة رقبة أسطوانية مائلة قليلا نحو الشكل المخروطي، يخترقها عدد كبير من النوافذ التي يفصل بينها من الخارج دعامات بارزة. الرقبة من الداخل أقل وضوحا وتبدو كأنها جزء من القبة ويتم الانتقال من المسقط المربع إلى القبة بواسطة مثلثات كروية. تتميز الجوامع العثمانية عن جوامع الفترات السابقة بالنوافذ الكثيرة التي تفتح ضمن الجدران على مناسيب مختلفة مشكلة ارتباطا بين الداخل والخارج وجزء من التشكيل الزخرفي للجدران.

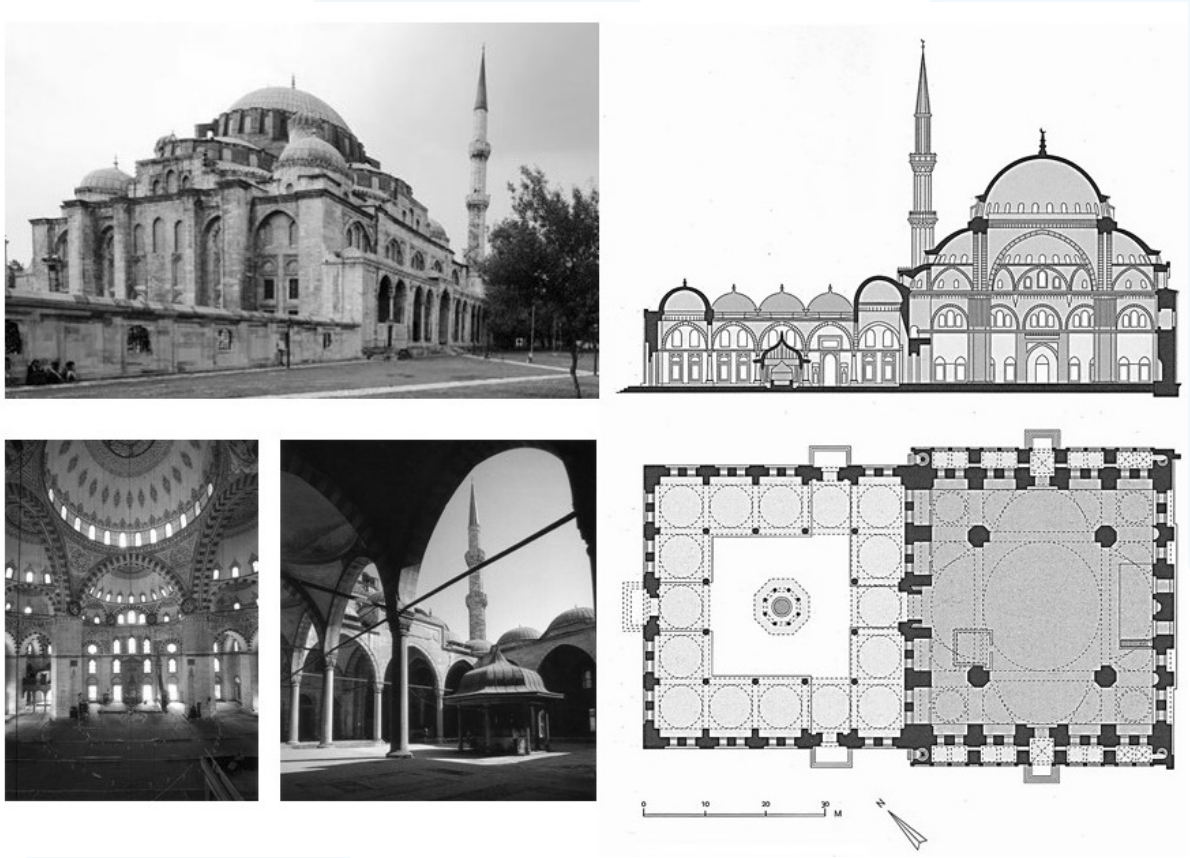

جامع شاه زادة في استنبول: مقطع طولي - المسقط - واجهة شمالية شرقية - صحن الجامع - حرم الجامع

يتقدم الحرم **صحن الجامع** المربع الشكل المحاط بالأروقة المسقوفة بالقباب. للجامع **مئذنتان** تقعان في زوايا الحرم المطلة على الصحن. تحمل هذه المآذن ميزات المآذن العثمانية. يغلب على جسمها الشكل الأسطواني المزود بالأخاديد الشاقولية أو الكثير الوجوه. تتميز هذه المآذن برشاقتها البالغة وشرفاتها المتعددة (هنا شرفتان محمولتان على مقرنصات) ورأسها الدقيق المخروطي المصفح بالرصاص.

2.2. جـامع ومجمـع السليمانية في استنبول (الكليــة السليمانيــة)

Sulaimaniya Mosque – Sulaimaniya Complex in Istanbul

انتقل المعمار سنان بعد الانتهاء من مجمع شاه زاده إلى بناء مجمع آخر في استنبول هو الكلية السليمانية، الذي كلفه به السلطان سليمان القانوني.

حقق سنان في جامع السليمانية تقدما ملحوظا في تصميم قاعة الصلاة وهنا يظهر التأثر المباشر بكنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia. نجد في كلا المبنيين مجازا متوسطا واسعا يحف به مجازان أصغر. المجاز الأوسط مسقوف بقبة مركزية كبيرة يرفدها في الشمال والجنوب نصفا قبة. بينما تغطي الجناحين الشرقي والغربي قباب صغيرة. القبة المركزية أكبر من الجامع السابق قطرها 26,5 م وارتفاعها 53 م، وتعتبر أكبر من أية قبة عرفت قبل ذلك في العمارة الإسلامية.

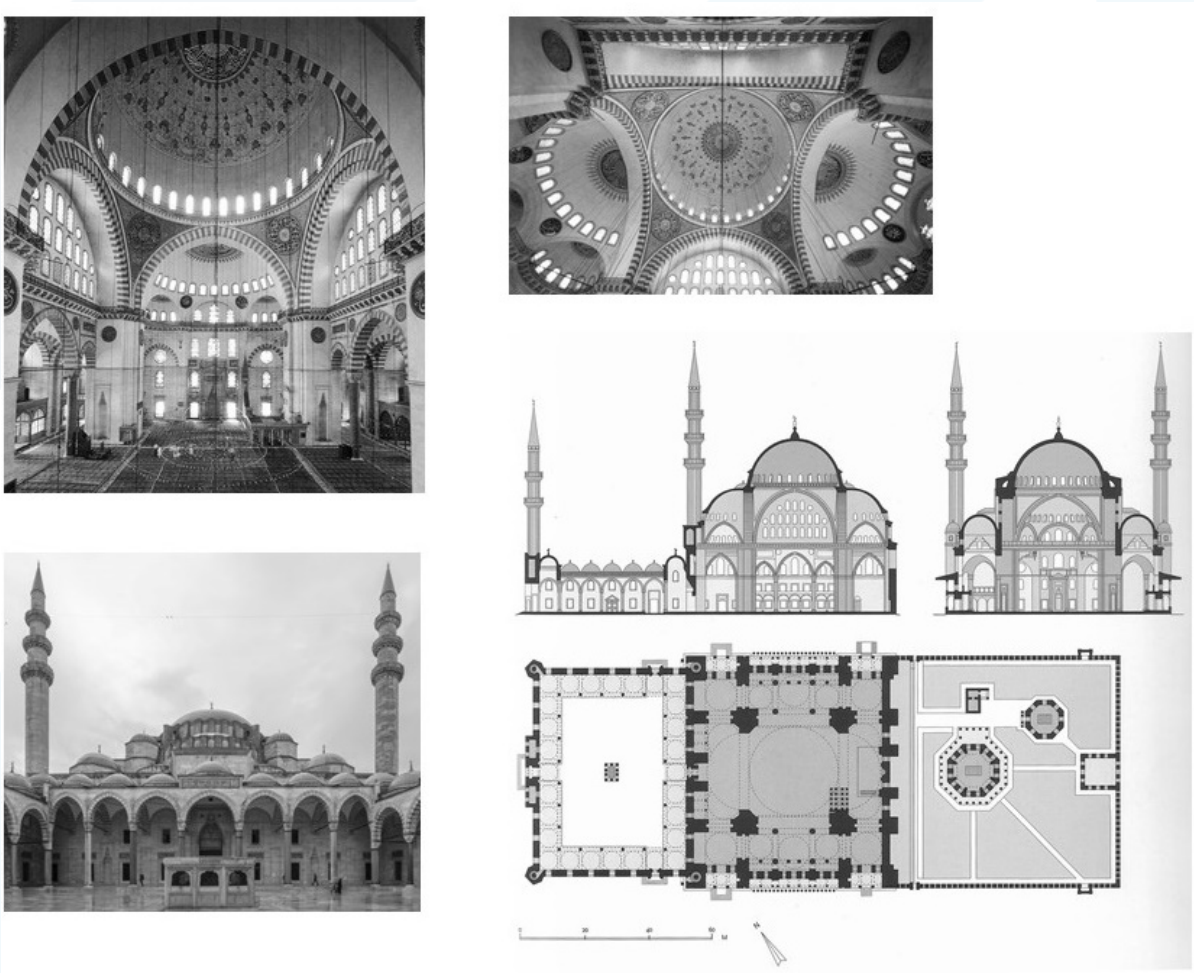

جامع السليمانية في استنبول: مقطع عرضي وطولي - القبة المركزية مع أنصاف القباب - حرم الجامع - صحن الجامع

يتقدم الحرم صحن محاط بالأروقة مع تمييز للمدخل. وازداد عدد المآذن، فأصبحت أربعا، اثنتان في زوايا الحرم الأمامية واثنتان في زوايا الصحن الأماميتين، للمآذن الميزات المذكورة سابقا.

جامع السليمانية يشكل قلب مجمع واسع يسمى أيضا **كلية**. يضم إضافة إلى الجامع مجموعة من المدارس وتكية ومشفى وحماما إضافة إلى تربة سليمان القانوني وتربة زوجته هاسيكي هوريم.

تربة السلطان سليمان: عبارة عن مبنى مسقطه مثمن في الداخل والخارج تعلوه قبة وهو يضم رواقا يسمح بالطواف حول الضريح.

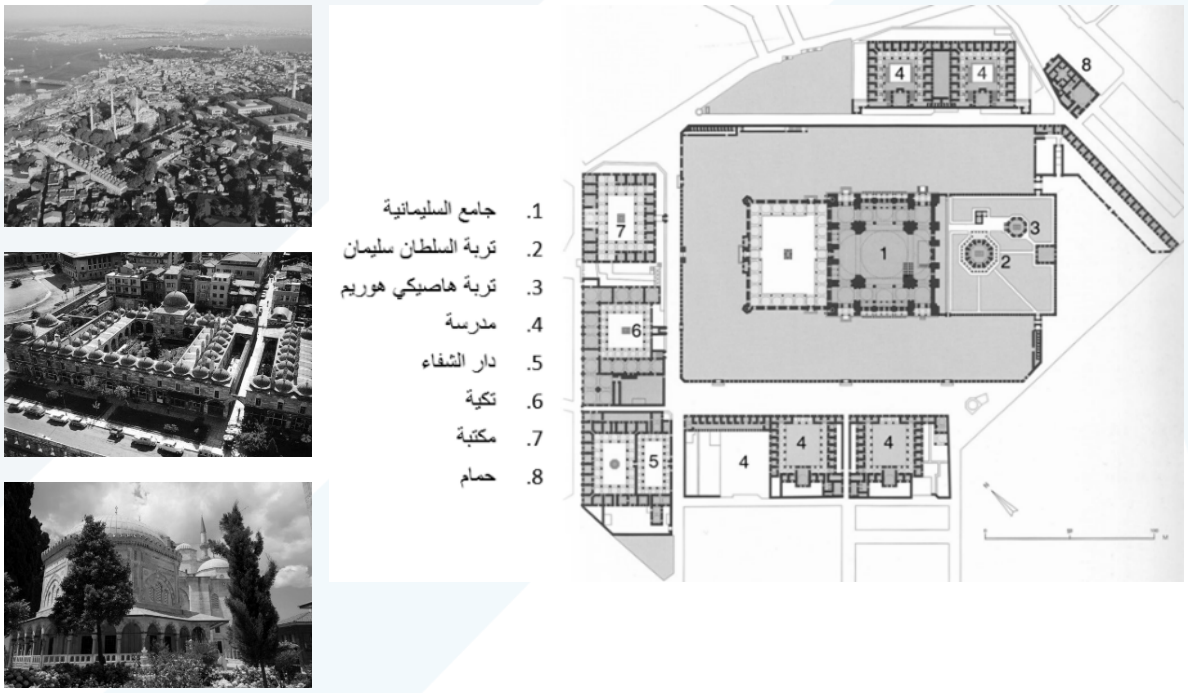

الكلية السليمانية في استنبول: مسقط - صورة جوية - مدرسة - تربة السلطان سليمان

3.2. جامع رستم باشا وجامع سوكولو باشا في استنبول

بني في استنبول وفي المدن العثمانية الأخرى بعد ذلك عدد كبير من الكليات والجوامع ولم يقتصر بناء هذه المجمعات على السلاطين وإنما الوزراء أيضا كانوا يخلدون أنفسهم ببناء الجوامع، من الأمثلة على ذلك **جامع رستم باشا** للمعمار سنان الذي بني عام 1561-1563م و**جامع سوكولو باشا** في استنبول الذي بناه سنان أيضا.

وكان ذلك عام 1572 م. المبنيان يعتمدان أيضا على فكرة القبة المركزية ولكن شهرتهما تعود إلى غنى الإكساء الداخلي والزخارف التي كانت منتشرة في هذه الفترة. جزء كبير من جدار القبلة فيهما مغطى بألواح الخزف المعروفة بالقاشاني نسبة إلى مدينة قاشان في إيران وكانت أشهر مصانعه في القرن السادس عشر والسابع عشر في مدينتي إزنك وكوتاهية في تركيا.

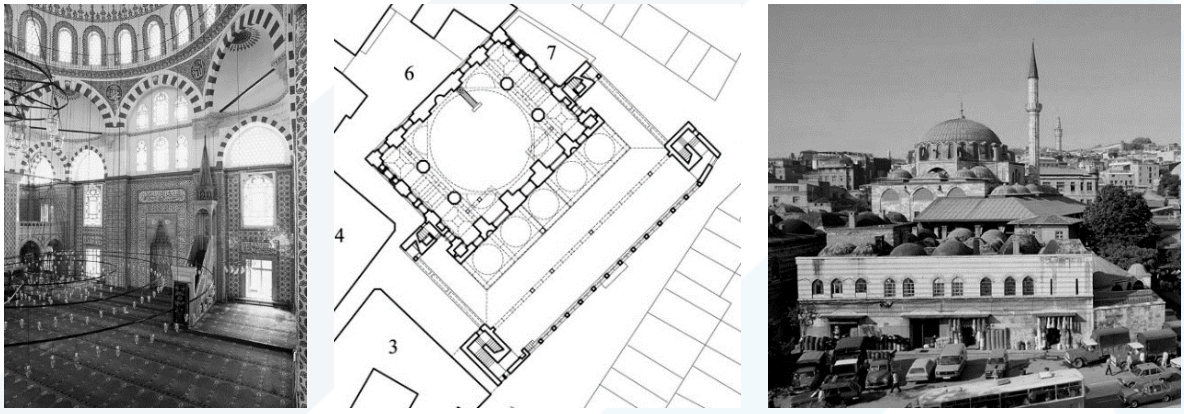

جامع رستم باشا في استنبول: موقع الجامع ضمن السوق - المسقط - حرم الجامع

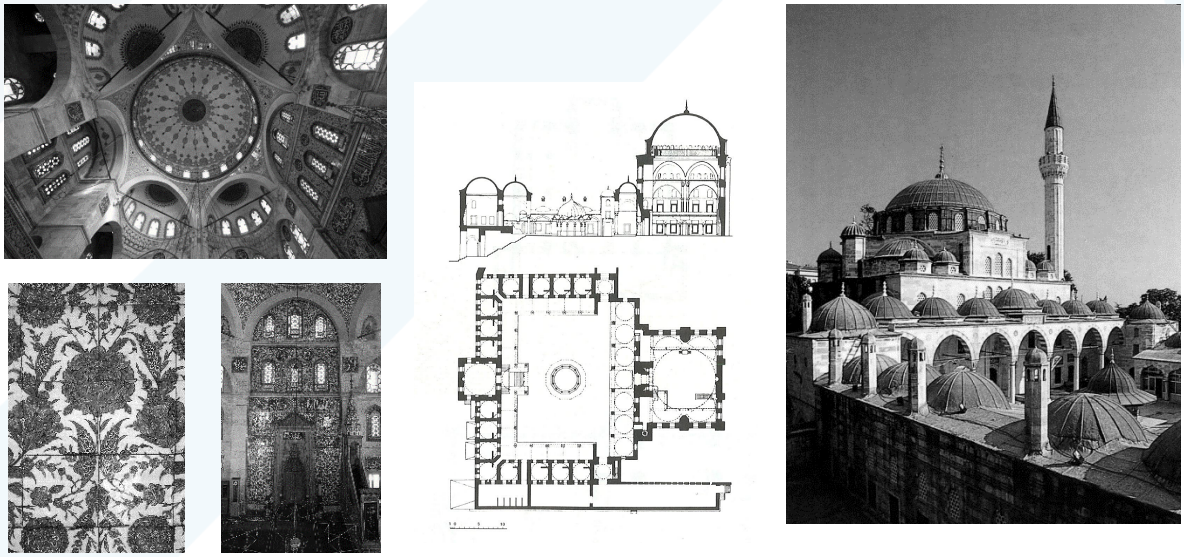

جامع سوكولو باشا في استنبول: مقطع طولي - مسقط - لقطة خارجية - القبة المركزية - جدار القبلة - تفصيل القاشاني

لم يقتصر نشاط البناء في مدينة استنبول وفي تركيا على ما رأيناه وإنما هناك أيضا الحمامات والقصور والمنازل والجسور ولعل أشهر القصور هو التوب قابي سراي الذي يحتل القرن الذهبي في استنبول.

4.2. حمـام هاسـيكي هـوريم في استنبول Hammam Haseki Hürüm

يقع هذا الحمام في استنبول بين كنيسة آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد. يعرف بحمام هاسيكي نسبة لمنشئته زوجة السلطان سليمان القانوني. بناه المعمار سنان عام 1556 م، يتميز بكونه حمام مزدوج، أي أنه يضم حمامين متلاصقين أحدهما مخصص للنساء والآخر للرجال يفصل بينهما جدار ثخين. القسمان متماثلان تماما، أقيما بالتناظر على محور طولي واحد. كل منهما يتألف من الأجزاء المعتادة للحمامات، البراني والوسطاني والجواني. بينما يشترك الحمامان بعناصر تخديمية مشتركة هي القميم والمرجل.

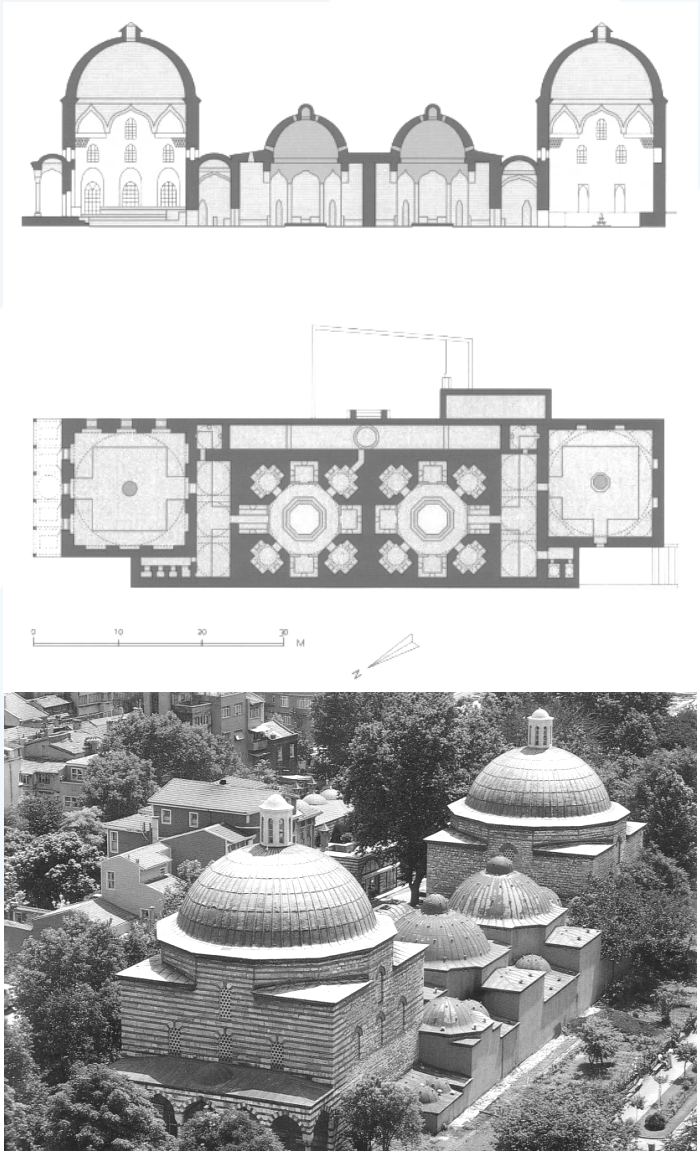

حمام هاسيكي هوريم في استنبول: مقطع طولي - مسقط - صورة جوية

https://manara.edu.sy/

3. عمـــارة العـــهد العثمـــاني في ســـورية

لم يقتصر النشاط العمراني للسلاطين العثمانيين على العاصمة وإنما كانوا يسعون إلى إثبات وجودهم في الولايات عبر منشآت هامة منها

1.3. الجـامع والمدرسـة الخسـرفية في حلـب al-Husrufiya Mosque and Madrasah

تنطلق أهمية جامع الخسرفية من كونه أول مسجد يشيد وفق الطراز العثماني في سورية ولأنه من المباني المبكرة التي تنسب إلى المعمار سنان. أمر ببنائه خسراف باشا عندما كان واليا على حلب عام 943 هـ / 1537 م وقبل أن يصبح وزيرا. ولكنه لم يكتمل إلا سنة 553 هـ م 1545 م.

المبنى يقع إلى الجنوب الغربي من قلعة حلب وهو عبارة عن مجمع يضم مدرسة ومسجدا ومطبخا (تكية) وغرفا للسكن وقاعة للتدريس. حرم الجامع عبارة عن قاعة كبيرة مربعة الشكل تعلوها قبة كبيرة وحيدة، يتقدم الحرم رواق مسقوف بخمس قباب. كان للمسجد مئذنتان أقيمتا في الركنين الأماميين من القاعة. المئذنة الغربية التي بقيت موجودة كانت تحمل مميزات لمآذن العثمانية المضلعة التي تنتهي بنهاية مخروطية. ولكن هذا الجامع والمجمع الملحق به دمروا بالكامل خلال الأزمة الحالية.

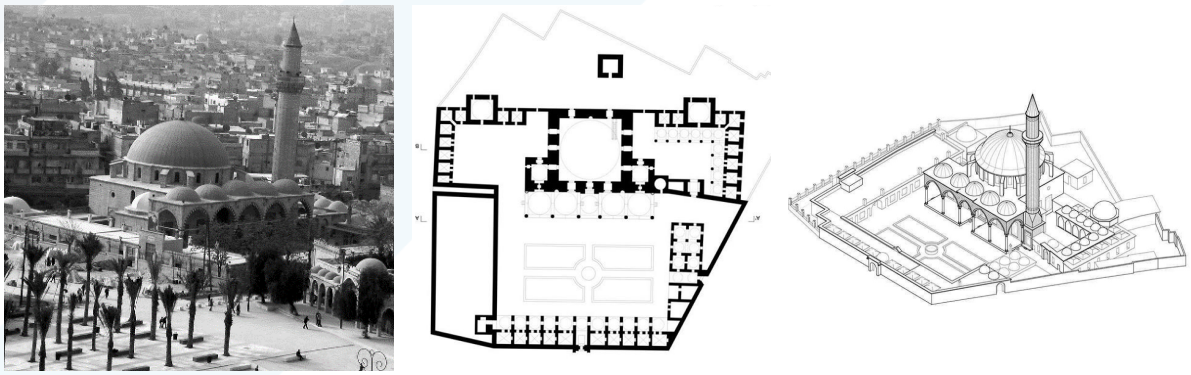

الجامع والمدرسة الخسرفية في حلب: منظور للمجمع - مسقط - صورة من قلعة حلب قبل التدمير

ولا زالت مدينة حلب تضم عددا كبيرا من الجوامع التي يعود بناؤها إلى الفترة العثمانية ومن أشهرها جامع العادلية (1556 م) وجامع البهرمية (1583 م) وجامع العثمانية (1728 م).

https://manara.edu.sy/

2.3. التكية السليمانية والمدرسة السليمية في دمشق

al-Takkiya as-Sulaimaniya and Madrasa as-Salimiya

تحتل التكية موقعا مميزا خارج أسوار مدينة دمشق، فقد شيدت على ضفاف نهر بردى في مكان قصر الظاهر بيبرس المعروف بقصر الأبلق. التكية مجمع كبير يشبه مجمعات استنبول. أمر ببنائها السلطان سليمان القانوني سنة 962هـ/1554 م واكتمل بناؤها في عهد السلطان سليم سنة 974 هـ/1566 م. وينسب هذا البناء للمعمار سنان.

يتألف المجمع من كتلتين متشابهتين الأولى هي التكية السليمانية، وهي الأكبر، والثانية هي المدرسة السليمية ويصل بينهما سوق مخصص للحجاج، الذين كانوا يقيمون في التكية والأراضي المجاورة. مخطط المبنى وتصميمه يبرز التأثيرات العثمانية بوضوح، بينما تظهر التقاليد المحلية في العناصر المعمارية والزخرفية.

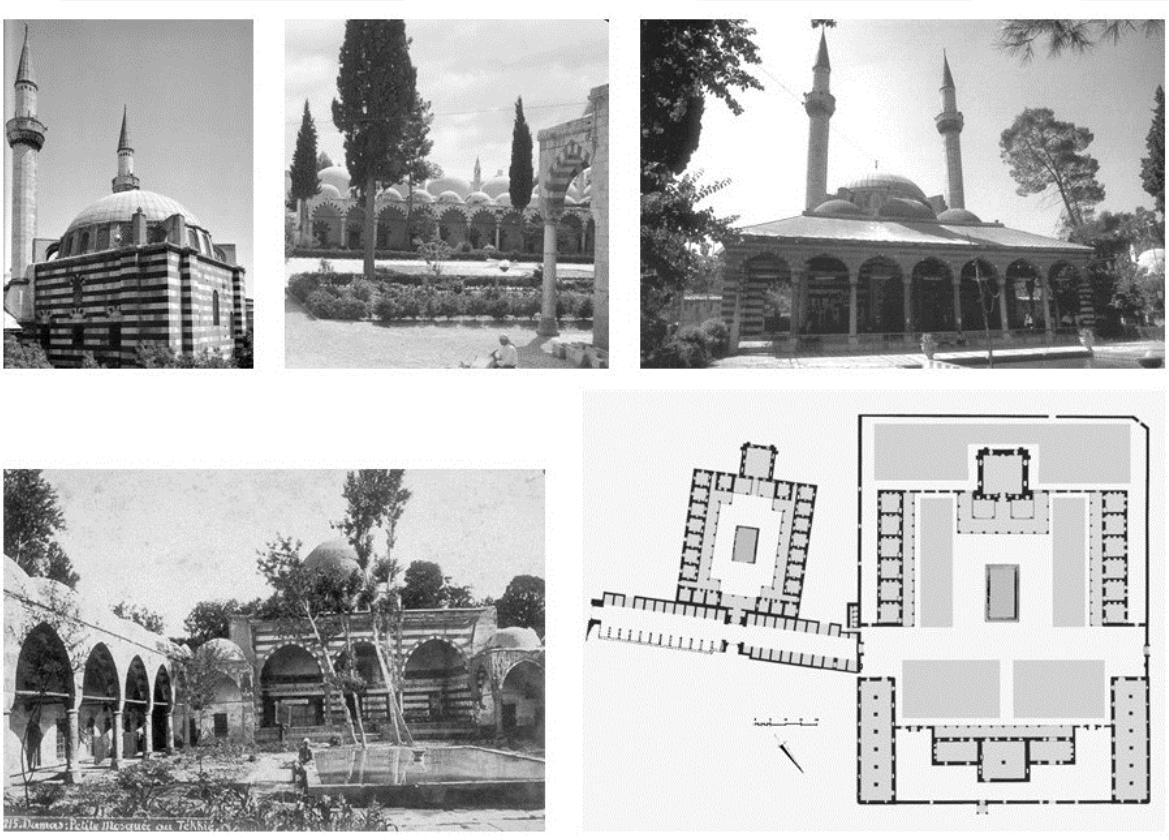

التكية السليمانية والمدرسة السليمية في دمشق: واجهة الجامع المطلة على الصحن - الأورقة الجانبية
واجهة الحرم الجنوبية الغربية - المسقط - الفناء الداخلي للمدرسة السليمية مع قاعة الصلاة والبركة الكبيرة

التكية تتكون من فناء واسع تتوسطه بركة مستطيلة. يحيط بالفناء من الجنوب أي من جهة القبلة قاعة الصلاة التي تبرز نحو خارج، بينما يتقدمها ضمن الفناء رواق مزدوج، أحدها مسقوف بثلاث قباب والآخر بسقف مائل مصفح بالرصاص. الرواق يستخدم كمصلى صيفي. يغطي قاعة الصلاة المربعة قبة وحيدة. المسجد مزود بمئذنتين، تقعان في ركني الجدار الشمالي للحرم. التأثيرات العثمانية تظهر في شكل القباب والمآذن أما تشكيل الواجهات بالمداميك المتناوبة (الأبلق) فهو استمرار للتقاليد المملوكية، التي تتجلى أيضا من الداخل عبر استخدام الإكساء الرخامي للقسم السفلي من الجدران.

يحيط بالفناء من الشرق والغرب مجموعتان من الغرف المربعة يتقدمها رواق وجميعها مغطاة بالقباب الصغيرة. أما في الشمال فنجد كتلة المطبخ وقاعتين كبيرتين للطعام. يعلو النوافذ والأبواب المستطيلة الشكل قوس من النوع الفارسي (مرسوم من أربعة مراكز) ويزين وجه القوس ألواح القاشاني.

أما **المدرسة** التي أمر ببنائها السلطان سليم، فتقع في الشرق، وتشبه التكية من حيث المسقط ولكنها أصغر منها حجما وتضم عددا أكبر من الغرف المخصصة للسكن. قاعة التدريس تقع في الجنوب وتستخدم أيضا كقاعة للصلاة ولكن ليس لها مآذن. الأروقة المحيطة بالفناء ذات أقواس مدببة محمولة على أعمدة، وتعلو كل مجاز قبة.

يربط بين التكية السليمانية والمدرسة السليمية سوق مكون من عدد من الدكاكين على الجانبين كانت مخصصة فيما مضى لبيع حاجيات الحجاج وحولت في القرن العشرين إلى سوق للحرف اليدوية.

3.3. جامع الدرويشية في دمشق ad-Darwishiya Mosque

لم يقتصر بناء الجوامع والمجمعات في بداية العهد العثماني في سورية على السلاطين، فقد عني الولاة العثمانيون أيضا ببناء الجوامع ولا سيما الولاة الذين أصبحوا فيما بعد وزراء من أمثال درويش باشا وسنان باشا ومراد باشا.

شيد الوالي درويش باشا في عام 982 هـ/1574 م مجمعا يضم مسجدا وتربة ومكتبا وسبيلا. يقع هذا المجمع خارج أسوار المدينة القديمة بالقرب من الباب الغربي وهو باب النصر (مدخل سوق الحميدية اليوم) ضمن محلة معروفة اليوم بالدرويشية.

نجد في هذا المبنى أيضا استمرار استخدام المداميك السوداء والبيضاء المتناوبة أي ما يدعى بالأبلق في تشكيل الواجهات. فتحات النوافذ مستطيلة يعلوها قوس عاتق من الطراز الفارسي. يدخل في تشكيل الواجهة القاشاني كعنصر زخرفي مميز، كما نرى في السبيل وفوق الفتحات. المبنى مكون من صحن ومصلى يتقدمه رواق

من جهة الصحن تعلوه خمس قباب. الحرم مستطيل الشكل مقسم إلى مجاز مركزي تعلوه قبة كبيرة مع مجازين جانبيين صغيرين سقف كل منهما بثلاث قباب.

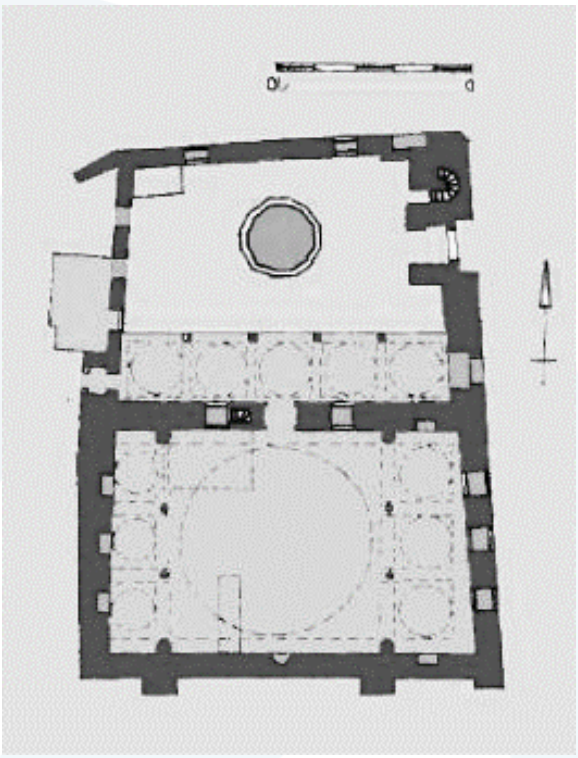

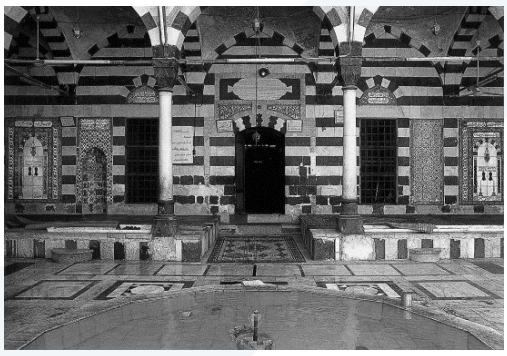

جامع الدرويشية في دمشق: المسقط - واجهة شرقية مطلة على الشارع - الرواق الذي يتقدم الحرم

4.3. جـامع السـنانية في دمشق as-Sinaniya Mosque

أمر ببنائه سنان باشا الذي ولي على دمشق فترة قصيرة وأصبح فيما بعد صدرا أعظم (أي وزير). شيد الجامع بين عامي 994-999 هـ/1585-1590 م. يقع جنوب الدرويشية قرب باب الجابية في محلة السنانية التي تنسب إليه.

المبنى يشبه الجامع السابق إذ يتألف من قاعة صلاة مستطيلة الشكل تعلوها قبة مركزية، ومن مجازين جانبيين صغيرين لهما سقف مستو. يتقدم الحرم رواق مكون من سبعة مجازات محمولة على أقواس فارسية يغطي كل منها قبة ينفتح شمالا على صحن الجامع الذي تتوسطه بركة مثمنة. تتميز واجهة الحرم باستخدام الأبلق المتعدد الألوان إضافة إلى الفتحات المزينة بألواح القاشاني. أما من حيث معالجة الواجهات الخارجية، فنرى ما رأيناه في جامع الدرويشية من حيث تناوب المداميك واستخدام القاشاني فوق الفتحات. ولكن ما يميز

جامع السنانية هو مئذنته التي كسيت من الخارج بألواح القاشاني ذات لون واحد هو الأخضر المائل إلى الزرقة. إضافة إلى البوابة التي يعلوها لوحة قاشاني رائعة وتنتهي في الأعلى بمقرنص.

جامع السنانية في دمشق: المسقط - واجهة جنوبية غربية - الرواق الذي يتقدم الحرم

4. خصـــائص العمـــارة العثمـــانية

انطلقت العمارة العثمانية من القواعد التي رسخها السلاجقة في الأناضول إضافة إلى التقاليد الموروثة عن البيزنطيين والأرمن وعن الأقاليم الإسلامية مثل بلاد الشام ومصر.

تتميز المباني العثمانية ولا سيما المساجد بأنها تبدو من الخارج ككتلة ضخمة تتضمن كثيرا من القباب وأنصاف القباب الملتفة حول قبة مركزية بالغة الارتفاع. تتدرج الارتفاعات بتناسق في هذه الكتلة ويتخللها عدد كبير من النوافذ إضافة إلى الدعائم الجدارية البارزة. أما المآذن فيغلب على جسمها الشكل الأسطواني المزود بالأخاديد الشاقولية أو الكثير الوجوه. تتميز هذه المآذن برشاقتها البالغة وشرفاتها المتعددة المحمولة على مقرنصات ورأسها الدقيق المخروطي مصفح بالرصاص.